ولا تنسوا الفضل بينكم

د. عبد السلام البسيوني

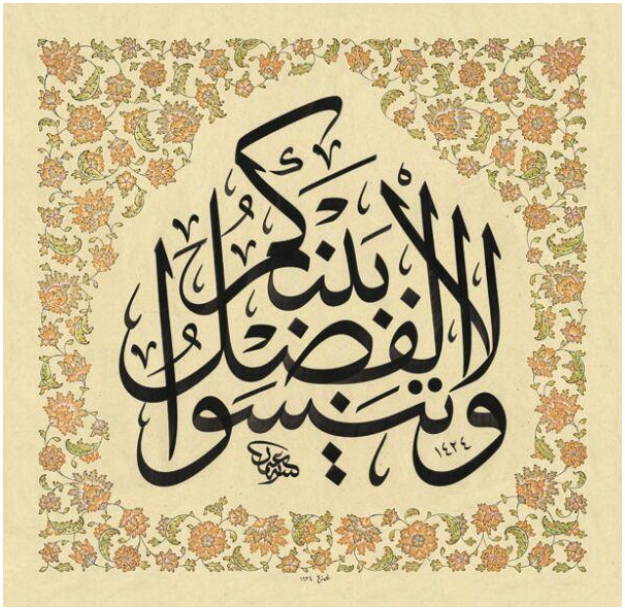

نتأمل اليوم عطاء قرآنيًّا جديدًا، ودستورًا ربانيًّا نبيلًا، وقاعدة إنسانية كريمة، وقيمة تفقدها المجتمعات المعاصرة، والممارسات التي يعيشها بعض الناس، ويمكن أن تكون حكمة توضع أمام أعيننا دومًا، وتكتب بماء الذهب: (ولا تنسوا الفضل بينكم)!

فأما النسيان فهو عدمُ ذكرِ الشيء، وخلو البال منه، والمراد به هنا: تجاهل يد أخيك عليك، وجحد فضله، ونسيان إحسانه لك؛ في مواقف له سالفة!

والفضل هو الإحسان بلا مقابل، أو هو الهِبة، والنعمة تأتيك من أخيك، والفَضْلُ والفَضيلةُ ضد النقص والنقيصة، والإفْضَالُ الإحسان، ويكون الرجل فاضلًا إذا اتصف بالفضيلة؛ بدرجة رفيعة من حسن الخلق!

ورجل مِفْضَالٌ وامرأة مِفْضالَةٌ على قومها: إذا كانت سمحة ذات فضل! يقول تعالى: (يسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ) ويقول سبحانه: (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا). و (إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) آل عمران:٧٣، و(الله ذو الفضل العظيم) الأنفال:٢٩.

وهذه الجملة (ولا تنسوا الفضل بينكم) هي جزء من قوله تعالى في الآية الثالثة والسبعين ومائتين من سورة البقرة: (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن، وقد فرضتم لهن فريضة، فنصف ما فرضتم؛ إلا أن يعفون، أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح، وأن تعفوا أقرب

للتقوى! ولا تنسوا الفضل بينكم؛ إن الله بما تعملون بصيرًا)!

وبناء العلاقة الزوجية على الفضل لا على العدل، والمسامحة لا المشاحة، والتساهل لا التقاتل، والتغافل لا التربص، فمن يعطِ أكثر، فهو الأفضل، ومن يتجاوز أكثر ويسمح، فهو الأقرب لمرضاة الرب، وطاعة المصطفى الحِب، صلى الله عليه وآله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا!

والآية الكريمة مسوقة عند الخلاف بين الزوجين؛ خلافًا يؤدي إلى الطلاق، وهذا عيدٌ عند إبليس عليه لعائن الله تعالى، الذي يحرص على أن يفرق بين المرء وزوجه، خصوصًا عندما تسوء الأخلاق، ويتعمق الشقاق، وتشتعل العداوات، ويظهر أسوأ ما في الإنسان من خلق! وهنا يذكرنا الله تعالى بإحسان الخلق، والفضل عند الانفصال، كما كانت الأخلاق سمحة، والقلوب منشرحة عند الاتفاق!

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى: يلاحقها القرآن باستجاشة شعور التقوى، ويلاحقها باستجاشة شعور السماحة والتفضل، ويلاحقها باستجاشة شعور مراقبة الله تعالى؛ ليسود التجمل والتفضل جو هذه العلاقة – ناجحة كانت أم خائبة – ولتبقى القلوب نقية خالصة صافية، موصولة بالله في كل حال.

لكن هل معنى: (ولا تنسوا الفضل بينكم) يقتصر فقط على العلاقة بين الزوجين وحدهما؟ أم هي قانون عام للتعامل بين الناس أجمعين – حالي الرضا والغضب – لنعرف الفضل لأهل الفضل، ونشكر أصحاب اليد علينا، مهما كان شكل هذه اليد؟

- لا شك عندي أن من علمني شيئًا هو صاحب فضل علي!
- ومن ساعدني في ضائقة، هو صاحب فضل علي!
- ومن واساني في شدة هو صاحب فضل علي!
- ومن ستر لي عورة هو صاحب فضل علي!
- ومن سد لي خَلةً هو صاحب فضل علي!

- **ومن جاملني في مناسبة هو صاحب فضل علي!**
- **ومن ظن بي خيرًا فهو صاحب فضلٍ علي!**
- **ومن تجاوز عن خطأ لي هو صاحب فضل علي!**
- **ومن عادني في مرض هو صاحب فضل علي!**
- **ومن زارني في بيتي لله تعالى هو صاحب فضل علي!**
- **ومن أكل طعامي ليسرني هو صاحب فضل علي!**
- **ومن قصدني في حاجة أؤديها لها فهو صاحب فضل علي!**
- **ومن دعا لي بظهر الغيب هو صاحب فضل علي!**
- **ومن بكى معي ليواسيني هو صاحب فضل علي!**
- **وأصحاب الفضل كثيرون لا يحصرون!**

لهذا فلعل الأليق أن نأخذ بالمعنى العام للآية، ولا نقف عند زاوية واحدة من زوايا تفسيرها، فإننا إذا فعلنا جعلناها قانونًا أخلاقيًّا، جديرًا أن نعلقه في صدور مجالسنا، ومكاتبنا، ومواقع عملنا!

وجعلناه حاكمًا لأخلاقنا، وضابطًا لسلوكًا، ومنارًا من منائر قيمنا التي يرضى بها عنا ربنا العلي، الذي يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها!

وقد توسع السلف رضوان الله عليهم، في معنى الفضل وتقدير الناس توسعًا عجيبًا: قيل لسيدي ابن عباس رضي الله عنهما: من أكرم الناس عليك؟ قال: جليسي الذي يتخطى الناس حتى يجلس إلي: لو استطعت ألا يقع الذباب على وجهه لفعلت.

وعنه رضي الله عنه قال: ثلاثة لا أكافئهم: رجل ضاق مجلسي فأوسعَ لي، ورجل كنت ظمآن فسقاني، ورجل اغبرت قدماه في الاختلاف على بابي! ورابع لا أقدر على مكافأته، ولا يكافئه عني إلا الله عز وجل: رجل حزبه أمر، فبات ليلته ساهرًا. فلما أصبح لم يجد لحاجته معتمدًا غيري.

ولما أوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وفزع من جبريل في صورته الملائكية، وهرع إلى خديجة عليها السلام، وهو يرتجف، لم تنس ما تعرفه عنه من فضل، وكمال، فقالت في يقين: (كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق) البخاري،٦٩٨٢!

وقد كان لسيدي المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الكرام، ورجالات السلف في حفظ اليد، وذكر الفضل، مواقف معجبة منها:

في البخاري،٣٨١٨: عن سيدي عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنه قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول صلى الله عليه وسلم: (إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد).

وجاءت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو عندي فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أنت ؟ قالت: أنا جثامة المزنية فقال: (بل أنت حسانة المزنية! كيف أنتم؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا)؟ قالت بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال فقال: (إنها كانت تأتينا زمن خديجة؛ وإن حسن العهد من الإيمان) الصحيحة، ١٤٢٤، عن سيدتي أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.

ويقول الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى عن المطعم بن عدي الذي أجار سيدي المصطفى يوم الطائف: المطعم هو أبو جبير: كانت له يدٌ على النبيّ ﷺ؛ حين رجع من الطائف فدخل في جواره إلى مكة، فأمضته قريش، وقالوا: مثلك لا يُخفر؛ فكانت يدًا بيضاء للمُطعم؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: (لو كان حيًّا ثم كلَّمني في هؤلاء لتركتُهم له) البخاري،٤٠٢٤!

وفيه شرعية مجازاة مَن له عليك يد كريمة، وإظهار استحقاقه لذلك بعد وفاته، وهذا من

كرم الأخلاق: أن يُجازى المحسنون، وأن يُشكروا على إحسانهم، وأن تُذكر لهم هذه اليد الطيبة – ولو بعد وفاتهم، حتى ولو كان فاعلها كافرًا – من باب التَّشجيع على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، والنَّفع لمن يستحقّ النَّفع.

وفي سير أعلام النبلاء: عن سيدي أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى القرشي العبشمي صهر رسول الله ﷺ وزوج ابنته زينب، وهو والد أمامة التي كان يحملها النبي ﷺ في صلاته، وهو ابن أخت أم المؤمنين خديجة، هالة بنت خويلد. أثنى النبي ﷺ على أبي العاص في مصاهرته خيرًا، وقال: (حدثني فصدَقني، ووعدني فوفى لي) وكان قد وعد النبي ﷺ أن يرجع إلى مكة بعد وقعة بدر، فيبعث إليه بزينب ابنته، فوفى بوعده، وفارقها؛ مع شدة حبه لها! وكان من تجار قريش وأمنائهم.

ولما هاجر رد عليه النبي ﷺ زوجته زينب بعد ستة أعوام على النكاح الأول. وقد كانت زوجته لما أُسر في بدر، بعثت قلادتها لتفتكه بها؛ فقال النبي ﷺ: (إن رأيتم أن تطلقوا لهذه أسيرها) فبادر الصحابة إلى ذلك، فأخذ عليه النبي ﷺ أن يخلي سبيل زينب – وكانت من المستضعفين من النساء – واستكتمه النبي ﷺ ذلك، وبعث زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار فقال: (كونا ببطن يأجج؛ حتى تمر بكما زينب فتصحبانها) وذلك بعد بدر بشهر! فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فركبت بعيرًا، وقدم أخو زوجها كنانة وابن خالتها وأخذ قوسه وكنانته نهارًا، فخرجوا في طلبها، فبرك كنانة، ونثر كنانته بذي طوًى، وقال لمن يطلبونها: والله لا يدنو أحد إلا وضعت فيه سهمًا! فقال أبو سفيان: كف أيها الرجل عنا نبلك حتى نكلمك، فكف، فوقف عليه، فقال: إنك لم تصب، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا، ولعمري ما بنا بحبسها عن أبيها من حاجة، ارجع بها حتى إذا هدت الأصوات وتحدث الناس أنا رددناها، فسُلها سرًّا، وألحقها بأبيها! ففعل، وخرج بها بعد ليال، فسلمها إلى زيد وصاحبه فقدما بها! فلما كان قبل الفتح خرج أبو

العاص تاجرًا إلى الشام بماله ومال كثير لقريش، فلما رجع لقيته سرية، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هربًا، فقدموا بما أصابوا، وأقبل هو في الليل حتى دخل على زينب، فاستجار بها فأجارته، فلما كان النبي ﷺ والناس في صلاة الصبح صرخت زينب من صُفة النساء: أيها الناس؛ قد أجرت أبا العاص بن الربيع!

وبعث النبي ﷺ إلى السرية الذين أصابوا ماله فقال: (إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالًا، فإن تحسنوا وتردوه فإنا نحب ذلك! وإن أبيتم فهو فيء الله؛ فأنتم أحق به) قالوا: بل نرده، فردوه كله، ثم ذهب به إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال ماله، ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي شيء؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرا! قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا خوف أن تظنوا أني إنما أردت أكل أموالكم، ثم قدم على رسول الله ﷺ.

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق خبر مقدم ابنة حاتم الطائي في الأسرى (وفيه ضعف) فقالت:(يا محمد إن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب؛ فإني بنت سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم الطائي! فقال صلى الله عليه وسلم: (يا جارية هذه صفة المؤمنين حقًّا، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه، خلوا عنها؛ فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق)!

وجاء في البداية والنهاية، ج ٣ عند ذكر مقتل أبي البختري ابن هشام: قال ابن إسحق: وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري؛ لأنه كان أكفَّ القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة: كان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة الظالمة في مكة، أيام حادثة الشِّعب!

ولما نزلت التوبة على الثلاثة الذين خلفوا، تلقاه الناس فوجًا فوجًا يهنئونه بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك! قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه

وسلم جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول؛ حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة!

فانظروا كيف توسع الصالحون من قبلنا في تقدير الفضل، وأهل الفضل!

أحبتي: ولا تنسوا الفضل بينكم: اجعلوها شعارًا، ومنهجًا، وانظروا كيف تصفو بها النفوس، وتتآلف القلوب، وتذهب الحزازات، وتعمُق المودات!

وسبحان ربي القائل: (ولا تنسوا الفضل بينكم)!

وإلى الملتقى في حلقة تالية، والحمد لله رب العالمين!